مجلة "آفاق فكرية"

ص. ص. 335 - 352

رت م د: 2353 - 0367

رت م د إ: 2602-5507

التصوف والطرق الصوفية في "بايلك الغرب" من خلال المجلة الإفريقية: دراسة تحليلية إحصائية

Sufism and Sufi Orders in the "Baelik of the West" through the African Journal: A statistical analysis study

طا. با. حدو حمزة [1]*، معمر العايب [2]

[1] جامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان (الجزائر)، مخبر الدراسات الحضارية والفكرية، hamza.haddou@univ-tlemcen.dz

[2] جامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان (الجزائر)، mamar.laib@univ-tlemcen.dz

تاريخ الاستلام: 2022-11-27 **تاريخ القبول:** 2023-01-08 **تاريخ النشر:** 2023-05-05

ملخص:

شكل التّصوف وما يحمله من فلسفات وسلوكيات رافدا تاريخيا مهمّا، وانتشر بشكل واسع في العهد العثماني ثمّ مراحل الاستعمار الفرنسي، وقد امتد تأثيره مختلف في جوانب الحياة ومنها حركة التّأليف، وهذا ما نستشفه في الكتابات الفرنسية ذات الطابع الإستشراقي، والتي سعت إلى دراسته وفهم جوهره خاصة بـ"بايلك الغرب"، لما ميزه من تجاذبات وأحداث جعلته فضاء خصبا للتّصوف والطرق الصوفية.

ومن خلال المجلة الإفريقية كمدونة تاريخية، قمنا بدراسة إحصائية تحليلية في نماذج من مواضيع التصوف ببايلك الغرب فتوصلنا إلى أنّ التصوف كان ميزة ظاهرة في تاريخ المنطقة من خلال التأليف في موضوعهومن خلال انتشار الطرق الصوفية وقد كان لها تأثير بارز في الكتابات الفرنسية الاستشراقية.

كلمات مفتاحية: بايلك الغرب؛ التصوف؛ الطرق صوفية؛ المجلة الإفريقية؛ استشراق.

Abstract:

The form of Sufism and its philosophies and behaviors is an important historical tributary, and spread widely in the Ottoman era and then the stages of French colonialism. Its influence extended to various aspects of life, including the authorship movement, which is clearly noticed in the French Orientalism writings. they sought to study and understand its essence, especially in the "Baelik of the West", and what distinguished it from the interactions and events that made it a fertile space for mysticism and Sufi paths. Through the African Journal as a historical corpus, and through an analytical statistical reading of examples of Sufism topics in the West, the study concluded that Sufism was a distinct feature in the history of the region through authorship on its subject and through the spread of Sufi orders. This had an impact and relationship with French and Orientalism writings

Keywords: Baelik of the West; Sufism; Sufi orders; African magazine; Orientalism.

* المؤلف المرسل.

مقدمة:

لقد شكل دخول الجزائر تحت لواء الدولة العثمانية مجالا لنشاط الطرق الصوفية، ومشاركتها في مختلف مجالات الحياة، وذلك راجع لطبيعة الأتراك العثمانيين الذين يميلون إلى التصوف خاصة الطريقة البكداشية، هذا من جهة ومن جهة أخرى لاستعماله كوسيلة لضمان الأمن والاستقرار وتحقيق القبول في وسط المجتمع الجزائري؛ والدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية. بالإضافة إلى دوره التعليمي والثقافي. فكانت الطرق الصوفية بمثابة مؤسسات ونخب تنظم المجتمع الجزائري وتحافظ على استقراره.

يعد المستشرقون الفرنسيون من مؤرخين وأنثربولوجيين وسوسيولوجيين؛ السبّاقين لدراسة التصوف والطرق الصوفية في الجزائر، حيث نالت هذه الظاهرة الحظ الوافر من البحث، فتعمقوا فيها قصد فهم مقاصدها وغاياتها، خاصة في العهد العثماني وبداية الاستعمار الفرنسي، وهذا خدمة لمصالحهم الاستعمارية خاصة مع ما لقوه من مقاومة شعبية عنيفة كان على رأسها شيوخ الطرق الصوفية.

لقد اعتبر الفرنسيون أن فهم التصوف وما ينجرّ عنه من ممارسات تعبدية وسلوكية؛ هو المفتاح لدراسة وفهم ذهنية وتفكير الإنسان الجزائري، خاصة لما لاحظوه من تعلق كبير بهذه الظاهرة من مختلف فئات وطبقات المجتمع الجزائري.

فعملوا على استحداث هيئات علمية تعمل على دراسة هذه الظاهرة خاصة من جانبها التاريخي؛ ومحاولة إسقاط نتائجها على الواقع لرسم الخطوط العريضة للمستقبل.

ولعل أبرز هذه الهيئات هي الجمعية التاريخية الجزائرية، ولسان حالها "المجلة الإفريقية" التي خصّصت عددا وافرا من الدراسات حول التصوف، والذي خصصنا له هذا المقال. حيث سنقوم بالتعريف بأهم المقالات التي تتعلق بالتصوف في بايلك الغرب، ومحاولة فهم واستقراء الكتابات الفرنسية.

وعليه تتمحور إشكالية دراستنا حول كتابات المجلة الإفريقية؛ والتي تعالج موضوع التصوف والطرق الصوفية في النطاق الجغرافي الخاص لبايلك الغرب. وتبيان المنهج المتبع من قبل الكتاب الفرنسيين في تناول القضايا الخاصة بالتصوف.

لتتفرع لمجموعة من التساؤلات:

- ماهي أراء الكتّاب الفرنسيين في التصوف؟
- ماهي إسهامات رجال التصوف في بايلك الغرب؟
- إلى أي مدى ساهمت هذه الكتابات في بناء تصور واضح عن التصوف في بايلك الغرب؟

وتكمن أهمية الموضوع في أن المواضيع المدروسة في كتابات المجلة الإفريقية والخاصة بالتصوف والطرق الصوفية في بايلك الغرب؛ تختلف من حيث الجودة والمضمون، لذا وجب علينا تسليط الضوء عليها، لفهم كيفية تعاطي الأقلام الاستعمارية مع هذه الظاهرة، التي هي مكون مهم من مكونات الهوية الوطنية.

أما أهم الدراسات السابقة التي تناولت نفس الموضوع، فيمكننا أن نميز فيها دراسة محمد الأمين بوحلوفة التي جاءت تحت عنوان "التصوف، الكتابات الفرنسية حول التصوف السني في الجزائر من 1859م إلى 1960م، قراءة من خلال المجلة الإفريقية".(بوحلوفة، 2017) والتي تناولت نظرة شاملة في مختلف مواضيع التصوف الموجودة في المجلة، بالإضافة إلى الكشاف التفصيلي لمقالات المجلة الإفريقية (1856-1962) الذي ساعدنا في ضبط وترتيب المقالات.(كبير، 2022)

وستكون هذه الأعمال بمثابة منطلق لنا، حيث سنقوم بعملية جرد لمواضيع المجلة التي تتناول الفكر الصوفي في بايلك الغرب وتقديم أهم ما جاء فيها. وللإشارة فإننا سنستعمل التقسيم الموضوعاتي لمعالجة المقالات ضمن عناوين محددة على حسب المحتوى.

1. بايلك الغرب:

إن مصطلح "البايلك" هو كلمة تركية قديمة أخذها الأتراك من المغول والسلاجقة، ثم اسْتُعْمِل لقبا لمعظم كبار الموظفين والقادة الذين يكلفون بإدارة الولايات، ويسمون وزراء الخارج.

أما البايلك في الجزائر فهو نظام سياسي وإداري واقتصادي وأيديولوجي انتهجه العثمانيون للتماشي مع الذهنية المحلية. حيث كان على رأس كل بايلك باي، وهو عبارة عن مسئول عام عن شؤون الرقعة الجغرافية المعين فيها، وهو تابع للسلطة المركزية في مدينة الجزائر، ويتمتع بنوع من الاستقلالية في تسيير موارد البايلك. (كعوان، 2019، الصفحات 132-133)

منذ استقرار الإخوة بربروس في الجزائر؛ سعوا إلى توسيع نفوذهم إلى دواخل البلاد وضمّها تحت راية الدولة العثمانية، وقد حتّمت المساحة الواسعة إلى ضرورة تقسيم هذه البلاد إلى مقاطعات، حتى تَسْهُل عملية حكمها وإدارة مواردها، ولعل الاهتمام الأول بالغرب الجزائري كان بالسيطرة على شرشال القريبة من مدينة الجزائر نظرا لموقعها الاستراتيجي.(عباد، 2012، صفحة 46) وقد امتد هذا النفوذ بعد حملة عروج على مدينة تنس وحاكمها حميدة العبدي التي ستكون فاتحة لتغلغل أكثر في مناطق الغرب الجزائري وصولا إلى مدينة تلمسان.(هايدو، 2012، صفحة 33)

يعود تاريخ ظهور البايلك كتقسيم إداري وسياسي إلى النصف الأول من القرن 16، حيث تم تقسيم البلاد إلى أربع بيليكات تسهيلا للحكم، وذلك خلال فترة حسن باشا ابن خير الدين الذي حكم في الفترة بين 1540م إلى 1552م. وكانت أول العواصم هي مازونة سنة 1563.(لواليش، 1994، صفحة 16) ليكون الباي أبو خديجة هو أول بايات لبايلك الغرب.(ابن عبد القادر، 1974، صفحة 16)

تمتد الرقعة الجغرافية لبايلك الغرب من حدود المغرب الأقصى غربا وواد الملوية، إلى حدود بايلك التيطري ودار السلطان، واختلف الباحثون في الحد الشرقي فالبعض اعتبره مدينة مليانة وواد الشلف،(بن صحراوي، 2013، صفحة 21) وقد ذكر الحاج الشريف الزهار أن نفوذ باي وهران يمتد حتى بوحلوان وإلى عمالة التيطري (الزهار، 1994، صفحة 47)أما شمالا فمن سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى الصحراء جنوبا، التي سمّاها توماس شاو "بلاد الجريد"، وأنه بلغ في أقصى امتداده 80 فرسخا[1] من الشرق إلى الغرب و25 فرسخا من الشمال إلى الجنوب (SHAW, 1830, p. 216)، أما الحدود الجنوبية فبقيت غير مضبوطة وتختلف على حسب كل باي والحملات التي يقوم بها[2]. ولعل ابرز التعريفات لحدود البايلك تلك التي يقدمها "أرمبورو" (ARAMBURU)

والذي اعتمد على المظاهر التضاريسية فحدده من واد الشلف شرقا إلى واد الملوية غربا (ARAMBURU, 1978, p. 09).

وأهم ما ميز النظام السياسي في هذا البايلك؛ هو طبيعته العسكرية نظرا لعدة عوامل أهمها: توتر العلاقات مع الدول القائمة في المغرب الأقصى (السعدية العلوية)، حيث كان البايلك وإدارته سدا منيعا في وجه الأطماع التوسعية المغربية، بالإضافة إلى الاحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير من 1505م إلى 1792م، زد على ذلك الثورات المتكررة سواء من القبائل أو رجال الطرق الصوفية وعلى رأسها الدرقاوية والتيجانية، لقد أدت هذه الظروف إلى اختلاف عواصم البايلك من مازونة إلى مستغانم معسكر ووهران بعد تحريرها.(بن صحراوي، بايلك الغرب الجزائري في المجلة الإفريقية، 2018، صفحة 05)

2. المجلة الإفريقية:

لقد تميز العهد الفرنسي بالنشاط الثقافي الذي قامت به مختلف اللجان والجمعيات، مع حركية علمية في ميدان التأليف التاريخي، كلجنة الاكتشاف العلمي للجزائر[3]. لتتطور إلى مرحلة إصدار الصحف والمجالات مثل جريدة المرشد الجزائري سنة 1832م، وجريدة الأخبار سنة 1839م، وأيضا جريدة المبشر التي ظهرت سنة 1847م والتي تهتم بالأخبار المحلية.(رحموني، 2015، الصفحات 22-24)

تمخّض عن هذه المحاولات تأسيس الجمعية التاريخية الجزائرية، وذلك بدعم سياسي من قبل الحاكم العام للجزائر الماريشال راندون، الذي سيصبح الرئيس الشرفي للجمعية، أما الرئاسة الفعلية فكانت لبيربروجر والذي نجح في استقطاب عدد كبير من الباحثين المهندسين والعسكريين والمترجمين، الذين سيساهمون في هذه الجمعية بعد استحداث هذه الهيئة العلمية التي سعت إلى نشر بحوثها. فتقرر إنشاء مجلة علمية تكون لسان حال الجمعية التاريخية الجزائرية والتي ستسمى بالمجلة الإفريقية.(بوجلال، 2020، الصفحات 123-138)

إن المجلة الإفريقية هي دورية علمية أصدرتها السلطات الاستعمارية الفرنسية لنشر البحوث الصادرة عن الجمعية التاريخية الجزائرية، صدرت أولى الأعداد سنة 1856م واستمرت في الصدور

حتى 1962م ولم تتوقف إلا في فترة الحرب العالمية الأولى من 1914 م إلى 1918م، تحتوي على 471 عددا في 106 مجلدا دام نشر وطبع هذه المجلة مدة 106 سنة، لغتها الرسمية هي الفرنسية مع وجود بعض النصوص بالعربية واللغة البربرية. وذلك في أكثر من 20 ميدانا أهمها التاريخ، الآثار، الجغرافيا وعلم الاجتماع...(رحموني، 2015، الصفحات 30-62)

ومن أبرز كتّابها الذين اهتموا بالدراسات التاريخية بيربروجر(berbrugger) فونتيور دي بارادي. دالماس دي غرامون[4]، بالإضافة إلى العديد من الشخصيات الجزائرية كمحمد بن أبي شنب.(بوجلال، 2020، الصفحات 123-138) وللإشارة فإن أعداد هذه المجلة موجودة في العديد من مكتبات الجزائر، كما أنها متاحة إلكترونيا.(GALLICA, 2010)

3. الكتابات الخاصة بالتصوف في بايلك الغرب في المجلة الإفريقية:

يعود اهتمام المستشرقين الفرنسيين بالجزائر قبل فترة 1830، ويظهر دالك جليا من خلال كتابات كل من ديفونتينو وبيسونيل وفانتور دي برادي، وزاد هذا الاهتمام مع أزمة 1827 بين الجزائر وفرنسا، حيث شجعت حركة الترجمة في معاهد اللغات الشرقية؛ فترجمة مؤلفات الدكتور شاو والقنصل والأديب بانتلي. (سعد الله، 1998، صفحة 09)

أما بعد التوغل الاستعماري فقد شرع الفرنسيون في حركة الترجمة والتأليف، وتعتبر المرحلة الأولى من مرحلة الاستشراف وحددت زمنيا من 1830 إلى 1879 فكانت حجرة الأساس لهذه الحركة اعتمد فيها على ما يعرف بكراسي اللغة العربية وتأسيس الجمعيات واللجان.

لتليها المرحلة الثانية والتي كانت من 1879 إلى 1930، حيث شهدت توسع هذا النشاط الإستشراقي؛ خاصة بعد إنشاء مدارس جديدة لتعلم اللغة العربية وعقد المؤتمر الإستشراقي الرابع عشر بالجزائر، أما المرحلة الأخيرة فكانت من 1930 إلى استعادة السيادة الوطنية، اتسمت بالنشاط المكثف والتوسع الكبير لدائرة الاستشراق نخبا ومؤسسات وعرف إنشاء معاهد متخصصة مثل معهد البحوث الصحراوية والدراسات الشرقية.(بوتدارة، 2021، صفحة 368)

لقد حظي التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني بقدر واسع من الدراسة، شملت موضوعات مثل الموضوعات التاريخية وكيفية تغلغل الفكر الصوفي أو من ناحية دراسة الطقوس

الدينية والممارسات التعبدية[5]. بالإضافة إلى البحوث الفردية حول أعلام الطرق الصوفية في الجزائر، والمشاركة السياسية لهذه الطرق.

بعد الاطلاع على مختلف أعداد المجلة يمكننا إحصاء حوالي 28 مقالا، تناول التصوف والمتصوفة ورجالاته ومختلف ما يتعلق به.(بوحلوفة، 2017، صفحة 185) وحاولنا في دراستنا القيام بعملية جرد للمقالات التي تستهدف التصوف والفكر الصوفي في بايلك الغرب في مختلف المجالات، سواء كانت بصفة مباشرة أو تلميحات أو حتى عن طريق عملية الإسقاط.

1.3. دراسات أثرية:

يعد علم الآثار من التخصصات التي تستهدف دراسة المخلفات المادية للإنسان من بناء ووسائل نشاط تساعده في حياته اليومية عبر مختلف الحقب والعصور، وقد اهتمت به المجلة لما له من دور بارز في ميدان العلوم الإنسانية، وكان لموضوعات التصوف حظ منها فرصدنا مقالين أثريين لهما علاقة بالتصوف في بايلك الغرب.

جاء المقال الأول تحت عنوان "آثار المرابط سيدي عبد القادر في مليانة"، ويستعرض كاتبه الآثار المذكورة هي في واد الشلف على بعد 6 كيلومترات جنوب مدينة مليانة، حيث يستعرض أهم الرحلات الاستكشافية التي زارت المنطقة، ابتداء برحلة الدكتور شاو وصولا إلى العهد الفرنسي، وأن المعلومات التي جمعها تحصل عليها من ضابط في الجيش الفرنسي قام بزيارة إلى المنطقة في منتصف سنة 1840م أثناء مقاومة الأمير عبد القادر(berbrugger, 1864, p. 454_464)، وذُكِرت المنطقة على أنها كانت مكانا لمعسكر خليفة الأمير "محمد بن علال".(سعيداني، 2020، الصفحات 103-114)

يصف الكاتب الشكل الهندسي للموقع، حيث يذكر أنه توجد هذه الأطلال على بعد 10 دقائق من المدينة، وهي عبارة عن بناء مقبب أمامه قناة مائية أو مكان لتجميع المياه.

والمجمل من هذه الدراسة أنها تناولت مكان الضريح بدقة، وأن الآثار التي عُثِر عليها في الموقع تحمل مجموعة من الرموز والكتابات التي تعود إلى الفترة الرومانية، اسْتُعْمِلت أحجارها لبناء ضريح الولي، ويمكن من خلال هذا المقال ملاحظة الموقع المتميز الذي احتله مقام هذا المرابط على

مشارف مدينة مليانة، وأن مكان الضريح يعكس المكانة الاجتماعية المرموقة التي حظي بها هذا الولي، حيث يشرف على أرض زراعية خصبة، مما يجعلنا نفترض وجود تجمع سكاني حوله، وهو ما يتناوله مقال في العدد 09 من المجلة الإفريقية. بالإضافة إلى اسم الولي "عبد القادر الجيلاني" الذي يؤكد مدى شعبية وانتشار الطريقة القادرية في المنطقة وأنها كانت منطلقا للانتفاضات الشعبية.(berbrugger, 1864, pp. 454-464)

أما الدراسة الثانية فكانت تحت عنوان "المرابطون دراسة أثرية جنائزية في شمال إفريقيا"، وهي عبارة عن دراسة أثرية قيمة اعتمد فيها الكاتب على المعاينة الميدانية للمواقع المدروسة، جاءت الدراسة في حوالي 74 صفحة قُسِّمَت فيها العناوين على حسب الشكل الهندسي، من الأشكال الهندسية التي تناولتها الدراسة ولها علاقة بموضوعنا: نذكر القبة المخروطية والهرمية والأسطوانية، القبب ذات الشرفات والرباطات ذات القاعدة المفتوحة.

حاول فيها كاتب المقال القيام بعملية التأصيل التاريخي للأشكال الجنائزية من الحضارات القديمة إلى زمن الدراسة، وأعطى مجموعة من الفرضيات حول بداية تكوين النمط الجنائزي وكيفية وصوله إلى بلاد المغرب مع تفسير دلالته. ومن أهم المعالم الصوفية التي تعرض لها وكان لها دور كبير في بايلك الغرب، وتناوله بنوع من الشرح والتفسير مع إبراز معنى كل بناء على الطريقة الصوفية، وتبيان الاختلاف العمراني من طريقة إلى أخرى، نذكر أهمها:

- زاوية سيدي محمد بن عودة[6].
- زاوية الأبيض سيدي الشيخ[7].
- الزاوية التيجانية بعيد ماضي[8].
- زاوية سيدي يحي بن صفية[9].(cauvet, 1923, pp. 448-521)

2.3. دراسات حول أعلام التصوف:

إن أول المقالات حول أعلام التصوف جاءت في المجلد الخامس، الصادر سنة 1861م حول أحد أبرز أعلام التصوف في الجزائر خاصة والعالم عامة، نظرا لحجم تأثيره الذي ما زال موجودا إلى غاية اليوم خاصة مع العدد الكبير للأتباع في مختف الأصقاع. جاءت الدراسة تحت عنوان "تاريخ الولي الصالح أحمد التيجاني مقتطف من الكناش" للكاتب ل. أرنو (Arnaud).

يمكن تقسيم هذا العمل إلى ثلاثة أقسام رئيسة، جاء الجزء الأول عبارة عن سيرة ذاتية للشيخ أحمد التيجاني، مع تبيان أصله ونسبه والمراحل التعليمية التي تدرّج فيها منذ ختمه القرآن الكريم في سن السابعة، إلى توغله في مختلف العلوم وتميّزه على أقرانه، مع ذكر البيئة التي نشأ فيها وهي مدينة عين ماضي والتي كان لها دور كبير في تربيته الدينية.

أما الجزء الثاني من المقال، فشمل رحلاته التعليمية في مختلف الأقطار كتلمسان وفاس والحجاز، مع تبيان دور هذه الرحلات في إثراء معارفه في العلوم العقلية والنقلية، وذكر عدد كبيرا من العلماء الذين أخذ منهم العلم وأجازوه في كل الحواضر التي زارها، فجمع أوراد العديد من الطرق في ترحاله، ومن الأحداث التي ذكرها هو امتحان الشيخ في القاهرة، وذلك خلال عودته من الحجاز، وأنه خرج منتصرا من هذا الامتحان ولقي الإشادة من علمائها ووصفوه بالعالم الجليل[10] .

في ختام المقال تناول أهم المبادئ التي كرّسها الشيخ وحرّض على نقلها لخلفائه في الطريقة، ويوضح كيفية انتشارها وازدياد أتباعها في كل الأقطار، ويصور لنا الصراع الذي دار بين الطريقة التيجانية ممثلة في محمد الكبير ابن الشيخ أحمد التيجاني، والحكم العثماني في الجزائر والباي حسن باي لبايلك الغرب، والذي انتهى بمقتل محمد الكبير وتوتر العلاقات بين الطرفين حتى الاحتلال الفرنسي.(Arnaud, 1861, pp. 464-480)

وفي المجمل جاءت الدراسة على شكل عموميات حول الشيخ أحمد التيجاني وطريقته، استهدف كاتبها إظهار الصراع بين السلطة الدينية والسلطة السياسية خلال هذه الفترة، التي اعتبرت الحركات الدينية تهديدا لوجودها.

جاء المقال الثاني ليعرفنا على أحد أبرز الشخصيات التي كان لها صدى وتأثير واسع في الجزائر في مطلع القرن 16 وهو سيدي أحمد بن يوسف الملياني، تحت عنوان "ملاحظات وأسئلة حول سيدي أحمد بن يوسف" في العدد 66 السنة 1925 لكاتبه مارسيل بوديين (bodin).

استُهِل المقال بعبارة "**أحب الصالحين ولست منهم رجاء أن أنال بهم شفاعة**"، للإمام الشافعي والتي تدل على صلاح وورع الشخصية المدروسة، إن من مميزات هذه الدراسة هو الأسلوب

المنهجي الذي اتبعه الكاتب في معالجة هذه الشخصية، وذلك من خلال الإحالة لمصادر المعلومة التي اعتمد عليها والتعليق عليها سواء باللغة العربية أو الفرنسية.

يمكننا تقسيم هذه الدراسة إلى العديد من الأقسام، استهلّها مارسيل بوديين بالتعريف بدراسته والخطوات التي سوف يتبعها، وذكر المصادر التي استقى منها وكلها مازالت على شكلها المخطوط إلى غاية اليوم، وهي كالتالي:

- بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الرّاشدي النّسب والدّار.(الحمدي، 2009)
- ربح التِّجارة ومغنم السّعادة فيما يتعلّق بأحكام الزِّيارة.(بركات، 2014)

أما الجزء الثاني فكان عبارة عن سيرة ذاتية للشيخ، مع إعطاء تقديرات حول تاريخ ومكان ولادته، حيث ذكر أنه "سيدي أحمد المريني (الأصل) الهواري (الموطن) الراشدي (مكان الولادة) ابن محمد المليانى مكان ضريحه"، أما اسم يوسف فهو نسبة إلى والد جده، ويؤكد ظهور الكرامات وعلامات الصلاح عليه منذ صغره، أما في رحلاته فيذكر التقائه بالشيخ زروق[11] ببجاية أحد أعلام التصوف في هذه الفترة، والذي أخذ عنه مبادئ التصوف على الطريقة الشاذلية، وزواجه بالولية الصالحة لالة ستي.[12] والذي نستبعده نظرا للفترة الزمنية الطويلة التي تفصل بينهما.

وقد حدد فيه الكرامات والمعجزات التي اتصف بها الولي الصالح على اختلافها وكثرتها. وإنها بلغت الأصقاع والأقطار في كامل بلاد المغرب، حيث قُدِّر أن أعداد أتباعه فاق 80 ألف تابع.

واصل كاتب المقال ذكر خصال الرجل والعوامل التي ساهمت في انتشار طريقته، منها ابتعاده عن التعصب والتزامه ورحابة صدره وذكر بعض أقوال الشيخ المأثورة، نذكر منها قوله: "إن خديم الدنيا أسير... وخديم الآخرة أجير... وخديم الحق أمير...".

ويصور لنا المشاركة السياسية لشيخ الطريقة وأتباعه، فبعد زيادة نفوذ الطريقة اليوسفية، سعت الدولة الزيانية إلى التضييق على نشاطه، مما أدى به إلى الهروب من جور الحكام الزيانيين وقال فيهم دعاءه الشهير: "شوشوا علينا شوش الله عليهم من البر والبحر". ويطلعنا كيف استغل

خير الدين وعروج بربروس هذا الصراع ليشكلوا أساسا لتحالف ساهم في بسط نفوذهم في الجزائر والإطاحة بملك بني زيان.(bodin, 1925, pp. 125-191)

وكنتيجة عامة يعتبر المقال هاما جدا، كما يعد من بين الدراسات القيمة التي تناولت هذه الشخصية المحورية في التاريخ الجزائري، خاصة لنوعية المصادر التي ما زالت على شكلها المخطوط حتى اليوم، وقد أبرز مجموعة من المحطات في حياة الشيخ، أهمها صراعه مع ملوك بني زيان وتحالفه مع الإخوة بربروس.

أما المقال الثالث والذي يتناول أعلام التصوف في بايلك الغرب، جاء في جزأين منفصلين في الإعداد لكاتبه أندريان ديبلاش، تناول ترجمة مختصرة لأحد أهم مؤلفات المتخصصة في التعريف بأولياء وعلماء منطقة تلمسان، وهو كتاب لبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، للشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الشهير بابن مريم الشريف المليتي التلمساني المتوفى سنة 1612م.(ابن مريم، 1908)

ومن خلال مقارنتنا للكتاب باللغة العربية؛ وترجمته التي أوردها أدريان ديبلاش (Delpech) نلاحظ أنه اتبع منهاج الترجمة الحرفية، ومبدأ الترتيب الأبجدي من الألف إلى الياء مع إضافة بعض الحروف والكلمات باللغة العربية، وما يناسبها وبطابقها في اللغة الفرنسية. (Delpech A. , 1883)

وعموما فإن السمة البارزة لهذه الدراسة، هي الاختصار الشديد الذي مارسه الكاتب في أغلب التعريفات التي تناولها خاصة في الأبيات الشعرية، وذكر الأنساب والقبائل، بالإضافة إلى كتابة معلومات في الهامش تخص التعريف بالمناطق والقبائل والأسماء الصعبة.(delpech, 1884)

3.3. انتفاضات الطرق الصوفية:

وقد شمل هذا الجزء إحدى أطول وأقوى الانتفاضات في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، والتي عرفت بانتفاضة درقاوة نسبة إلى "الطريقة الصوفية الدرقاوية"، ابتدأ الكاتب دراسته في التعريف بأصل الطريقة قائلا: "إن أصل طائفة درقاوة غير معروف جيدا..."،وأن جذورها ترجع إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويذكر أهم المصادر التي استقى منها المعلومات، أهمها زمنية

محمد بن مسلم باش دفتر باي حسن، وكتاب والصون استر هازي (Esterhazy, 1840) الذي يشير إليه كثيرا، مع ذكر منهجه في الدراسة والذي ينص على تتبع أصل هذه الطريقة كرونولوجيا والتي جاءت مقسمة على النحو التالي:

1.3.3. المرحلة من 1800 م إلى 1805م:

استعرض فيها الإرهاصات الأولى لهذه الطريقة منذ قدوم العربي الجمل إلى شمال فاس، واستقر بها ودعا إلى تعليم مبادئ الشاذلية الصحيحة، وكيف أصبح عبد القادر بن الشريف شيخ الطريقة بالجزائر، حيث عمل على نشر أصولها وتحقيق شعبية واسعة، جعلت الأهالي يتوجهون إليه بشكاوى حول ظلم الأتراك فبشرهم بالنصر القريب.

2.3.3. المرحلة من 1805م إلى 1805م:

أخذت هذه المرحلة حصة الأسد من الدراسة، يتناول دبلاش (Delpech) في هذه المرحلة الصراع القائم بين الشريف الدرقاوي وأتباعه والسلطة في بايلك الغرب؛ ممثلة في الباي وجيشه والقبائل المخزنية، ويوضح كيف استغل الدرقاوي الأوضاع المتردية في بايلك الغرب من أجل إثارة القبائل على الحكم العثماني.

لقد حقق الدرقاوي العديد من الانتصارات ضد الباي مصطفى المنزلي، كانت ذروتها في معركة فرطاسة[13] وسيطرته على مدينة معسكر، ومحاصرته مدينة وهران عاصمة البايلك في هذه الفترة.(المزاري، 1990)

يصور لنا الكاتب أن الحل قد أتى من السلطة المركزية في الجزائر، وذلك بإرسال قوة عسكرية مع تعيين باي جديد هو محمد المقلش، استطاع بفضل حكمته من تنظيم صفوفه وفك الحصار المفروض على مدينة وهران، والدخول في حرب استنزاف مع الدرقاوي اعتمد فيها على محالفة القبائل وعلى قوته العسكرية، فكسر شوكة الثوار في العديد من المواقع وهذا حتى وفاته، ولعل ما يميز هذه المرحلة إدراج الكاتب لتعريف واف للولي الصالح سيدي أحمد بن عودة.

3.3.3. المرحلة من 1807م إلى 1808م:

تتزامن مع فترة عودة الباي مصطفى المنزلي للحكم، استمر الدرقاوي في ثورته لكن من دون نتائج ملموسة، والملاحظ أنه فقد أغلب أتباعه وتزعزعت ثقة القبائل فيه بسبب الهزائم المتكررة ضد قوات الباي.

4.3.3. المرحلة من 1808م إلى 1813م:

تتزامن مع تولي الباي محمد بوكابوس الحكم، وهي المرحلة الأخيرة من هذه الانتفاضة، وتميزت بفتور حركة الدرقاوي الذي أصبح يستهدف المناطق الجبلية الوعرة والصحراوية ليكون بعيدا عن أعين السلطة، اتبع الباي سياسة سابقيه، وتمكن من إعادة الاستقرار لهذا البايلك.(Delpech A. , 1874)

وكنتيجة عامة حاول الكاتب تناول إحدى أهم الانتفاضات في تاريخ الجزائر الحديث والتي هزت أركان الدولة الجزائرية ، وكانت سبب لعزل مجموعة من البايات من مناصبهم، وقد قسم الثورة زمنيا وفق الأحداث البارزة فيها، ولعل ابرز جزئية يحاول كاتب المقال إدراجها هي إبراز مظاهر العنف والقطيعة بين السكان المحليين والحكام الأتراك والتي تدل على توتر الأوضاع في بايلك الغرب خصوصا وايالة الجزائر عموما.

4.3. الممارسات الصوفية:

يعد هذا المقال فريدا في طرحه، فهو يتناول موضوعا يحمل في طياته العديد من الجوانب، ويمكن أن يُصَنَّف كدراسة اجتماعية تاريخية تعطينا قراءة للواقع الاجتماعي، وكيف ارتبطت طرق الوقاية والعلاج بمعتقدات دينية، مما يبين انحطاط المنظومة الصحية في هذه الفترة.

يستهل كاتب المقال أبو بكر عبد السلام بن شعيب التلمساني دراسته بالتعريف بالدور الذي يلعبه الولي الصالح في المخيال الشعبي الجزائري، وأنه أصبح المهرب والمنفذ للناس من مشاغل الدنيا وهمومها، وذلك نتيجة مجموعة من الأفكار والمعتقدات التي تبلورت مع الوقت لتصبح على ما نعرفه اليوم.(ben choaib, 1907, p. 251)

ومع غياب أساليب الطب المتطورة وضعف المنظومة الصحية في العهد العثماني وحتى العهد الفرنسي[14]؛ أصبح الناس يلجؤون إلى الولي والزوايا من أجل الاستشفاء من مختلف الأمراض، سواء كانت جسمية أو نفسية، وذلك بمجموعة من الممارسات التي تختلف من مكان لآخر.(القشاعي، 2013، الصفحات 299-309)

وقد أورد لنا الكاتب مجموعة من الأمراض المنتشرة وكيفية علاجها، وقد لخصناها في:

1.4.3. الأمراض الجسمية:

الرمد: ويعالج بتناول حبات زيتون من الشجرة المتواجدة بضريح سيدي يعقوب بتلمسان.

الصداع النصفي: ويكون الشفاء منه عن طريق تناول رأس خروف داخل قبة الولي الصالح سيدي بوراس.

الحمة: يقوم المريض بزيارة قبة سيدي القيسي لمدة ثلاثة أيام متتالية، وذلك قبل شروق الشمس وأخذ أوراق الأشجار المتناثرة هناك وحرقها واستنشاق دخانها.

العقم: ويكون الشفاء منه حسب الكاتب بالحج إلى ضريح سيدي الداودي بن ناصر وذلك يوم الأربعاء.

2.4.3. الأمراض النفسية:

ويقصد بها الأمراض التي لها علاقة بالجانب الروحي، أو ما يعرف في الأوساط الشعبية بظاهرة "العين" (أو التعامل مع عالم الجن)، ويكون الشفاء من ذلك عن طريق مرابط أو طالب له معرفة بهذا العالم، عن طريق ممارسات وطقوس أهمها تعليق التمائم والكتب، والذبح في ضريح ولي من الأولياء، وهذا حسب تعليمات الطالب، ويذكر ما يدور في هذه العملية بالتفصيل من بداية المرض إلى غاية الشفاء.(ben choaib, 1907, pp. 252-253)

خاتمة:

في ختام دراستنا خلصنا لبعض النقاط أهمها:

شكّل بايلك الغرب فضاء خصبا لانتشار وازدهار الفكر الصوفي، نتيجة للظروف السياسية المتمثلة في التهديدات الخارجية، بالإضافة إلى عوامل داخلية كتشجيع البايات لرجال التصوف. سعت الهيئات العلمية الفرنسية إلى دراسة الفكر الصوفي وما انجر عنه من ممارسات تعبّدية وسلوكية، باعتباره السمة المميزة للمجتمع الجزائري طوال العهد العثماني، ولعل أبرز هذه لهيئات العلمية لدينا الجمعية التاريخية الجزائرية ولسان حالها المجلة الإفريقية

ساهمت هذه الرغبة في التعرف على هذه الظاهرة في تنوع الدراسات الخاصة بها، فشملت الجوانب التاريخية الأنثروبولوجية الأثرية والاجتماعية، وفق منهج استشرافي، يمكننا أن نلاحظ ثنائية في تفسير الفكر الصوفي بين من اعتبره مجرد خزعبلات وممارسات ومن اعتبره فلسفة حياة منسجمة مع الواقع. مما أدى إلى تنوع الدراسات الخاصة بالتصوف الجزائري.

تعبّر المقالات الموجودة في المجلة الإفريقية عن مدى تعلق الفرد الجزائري بالدين، وأن غالبية الجزائريين إبان الفترة العثمانية تميزوا بانتمائهم لطريقة من الطرق الصوفية.

ساهمت هذه الدراسات في نشر كم هائل من التراث الجزائري المتعلق بالطرق الصوفية وفق حلة ومنهج أكاديمي يتماشى مع الدراسات المعاصرة.

وكنتيجة عامة يعتبر التصوف والمواضيع المتعلقة به جزءا لا يتجزأ من تراثنا وتاريخنا، ومن أجل فهمه أكثر وجب علينا دراسة المؤلفات الأجنبية، وعلى رأسها المجلة الإفريقية والتي تعتبر من أهم المصادر التاريخية الغنية بالمادة العلمية في هذا الموضوع.

الملاحق:

جدول 1

قائمة المقالات التي لها علاقة بالتصوف والطرق الصوفية في بايلك الغرب في المجلة الإفريقية

عنوان المقال	الكاتب	السنة	العدد
تاريخ الولي أحمد التيجاني	لويس أرنو	1861	5
أطلال على المرابط سيدي عبد القادر	بيير بروجر	1864	8

ملخص انتفاضة درقاوة في بايلك الغرب	أدريان ديبلاش	1874	18
سيدي أحمد بن يوسف	مارسيل بودين	1925	66
مختصر كتاب البستان ج1	أدريان ديبلاش	1883	27
مختصر كتاب البستان ج2	أدريان ديبلاش	1884	28
المرابطون دراسة أثرية جنائزية	ل.كوفات	1923	64
المرابطون المعالجون	أبو بكر عبد السلام ابن شعيب	1907	51

المصدر: من خلال أعداد المجلة الإفريقية

التعليقات والشروحات:

[1] وهو تقريبا حوالي 5.76 كلم حاليا

[2] ولعل أشهر هذه الحملات تلك التي قادها الباي محمد الكبير إلى الجنوب، ووصل حتى عين ماضي والأغواط، للمزيد أنظر: أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح محمد بن عبد الكريم، عالم الكتاب، القاهرة 1969م.

[3] تأسست هذه اللجنة في 14 أوت 1837م، وضمت العديد من الأفراد المتخصصين في مختلف التخصصات العلمية، عسكريين ومدنيين على أن يقوموا بأبحاث لاكتشاف الجزائر، للمزيد أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت 1998 ص 80_88

[4] وهو صاحب الكتاب المهم في تاريخ الجزائر، أنظر:
Grammont. h. d. histoire d'Alger sous la domination turque. 1515_1830. Paris. e. leroux. 1887.

[5] ولعل أبرز الدراسات الخاصة بالتصوف والطرق الصوفية في الجزائر هي كتاب لوي رين تحت عنوان "المرابطون الإخوان"، أنظر:
Rinn louis. marabout et khouan. adt Adolphe JourdanAlger.1984

[6] يوجد الضريح في ولاية غليزان.

[7] توجد الزاوية في دائرة الأبيض سيدي الشيخ ولاية البيض

[8] توجد الزاوية بعين ماضي ولاية الأغواط

[9] يوجد الضريح في بلدية سيدي الجيلالي ولاية تلمسان.

[10] وهي نفس المعلومات التي تتفق عليها أغلب المصادر والمراجع، أنظر: عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ عبد القادر التيجاني وانتشار طريقته، دار موفم للنشر، الجزائر 2015م

[11] هو أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير برزوق من أكبر رواد التصوف في الجزائر، كانت له مدرسة شهيرة ببجاية، تخرّج على يده العديد من العلماء أشهرهم أحمد بن يوسف الملياني، محمد بن خدة الراشدي ومحمد ألأخضري، للمزيد أنظر: عبد المنعم القاسمي الحسيني، أعلام التصوف في الجزائر منذ البداية إلى غاية الحرب العالمية الأولى، ط1، دار الخليل ألقاسمي، الجزائر 2005م ص 63_65.

[12] تذكر الروايات على أنها من صلب قطب الأقطاب عبد القادر الجيلاني، وعن كيفية انتقالها إلى تلمسان. أنها وأثناء زيارتها لقبر والدها غاصت في نوم عميق، فرأت في منامها سيدي عبد القادر الجيلاني يأمرها بالانطلاق إلى بلاد المغرب مرقد صديقه أبي مدين الغوث، للمزيد أنظر: محمد مكحلي، الأولياء والصلحاء في الجزائر الظاهرة والجذور، دار القدس العربي، وهران 2020م، ص 124-125

[13] وهي معركة جرت بين الدرقاوي والباي مصطفى، انتهت بانتصار الدرقاوي وتشتيت صفوف الباي بالقرب من مدينة معسكر، للمزيد أنظر: محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح المهدي البوعبدلي. ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر 2013م، ص 273.

[14] كان الإنتاج العلمي في الطب خلال العهد العثماني قليلا، ومن أشهر الكتب في تلك الفترة نذكر كتاب ابن حماد وش أنظر: عبد الرزاق بن حمادوش، كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1996م.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو القاسم سعد الله. (1998). *تاريخ الجزائر الثقافي* (المجلد الجزء 06): دار الغرب الاسلامي. بيروت لبنان.
2. أحمد الحمدي. (2009). مخطوط بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الرّاشدي النّسب والدّار، مقاربة منهجية وتاريخية. *المجلة الجزائرية للمخطوطات، 05* (06)، الصفحات 6-20.
3. أحمد الشريف الزهار. (1994). *مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر*. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر.
4. اسماعيل بركات. (2014). مدوّنة المناقب في التُّراث الجزائري خلال القرن 19م، مقاربة نقدية في المنهج والتّاريخ «ربح التِّجارة ومغنم السّعادة فيما يتعلّق بأحكام الزّيارة»، الحاج موسى علي بن أحمد الجزائري (ت حوالي 1330هـ/1911م. *مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، 03* (06)، الصفحات 33-88.
5. التلمساني ابن مريم. (1908). *البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان*. المطبعة الثعالبية الجزائر.
6. بن عيسى كبير. (2022). *الكشاف التفصيلي لمقالات المجلة الإفريقية (1962-1865)*: منشورات المجلس الأعلى للغة العربية. الجزائر.
7. سالم بوتدارة. (2021). الفكر الصوفي الجزائري من منظور الكتابات الاستشرافية الفرنسية. *مجلة الواحات للبحوث و الدراسات*، صفحة 368.
8. صالح عباد. (2012). *الجزائر خلال الحكم التركي*: دار هومة. الجزائر
9. عبد الجليل رحموني. (2015). *اهتمامات المجلة الإفريقية بتاريخ الجزائر العثمانية، (مذكرة ماجستير)*.جامعةسيدي بلعباس، سيدي بلعباس.
10. فارس كعوان. (أبريل, 2019). المصطلحات الإدارية العثمانية في الجزائر مصطلحات: الباشا-الدنوش-البايلك كنماذج،. *مجلة مدارات تاريخية*، الصفحات 132-133.
11. فتيحة لواليش. (1994). الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر (رسالة ماجستير). جامعة الجزائر ، الجزائر.
12. فراي ديغو هايدو. (2012). *تاريخ ملوك الجزائر*. (ابو لؤي الاعلى عبد العزيز، المترجمون):دار الهدى للنشر و التوزيع الجزائر.
13. فلة موساوي القشاعي. (2013)،. *الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518م-1871م*. : منشورات ابن سنان الجزائر.
14. كمال بن صحراوي. (2013). *أوضاع الريف في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني (أطروحة دكتوراه)*. وهران، جامعة وهران.
15. كمال بن صحراوي. (2018). *بايلك الغرب الجزائري في المجلة الإفريقية*: دار المجدد للطباعة و النشر والتوزيع . الجزائر.
16. لأغا بن عودة المزاري. (1990). *"طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا"، إلى أواخر القرن التاسع عشر، تح يحي بوعزيز، ج1، ط1، ص 300*. (المجلد الجزء الأول). بيروت: دار الغرب الإسلامي. *لبنان*
17. لخضر سعيداني. (2020). محمد بن علال وجهوده في مقاومة الأمير عبد القادر، المجلد 12. *مجلة منون، 12* ، الصفحات 103-114.
18. محمد بوحلوفة. (2017). الكتابات الفرنسية حول التصوف السني في الجزائر من 1859م إلى 1960م قراءة من خلال المجلة الإفريقية. *مجلة العلوم الاسلامية و الحضارة* .
19. مسعود بوجلال. (2020). *الاحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير من خلال المدونات الفرنسية: المجلة الإفريقية ونشرية وهران الأثرية والجغرافية، دراسة بيبليوغرافية تحليلية(أطروحة دكتوراه)*. تلمسان، جامعة تلمسان.
20. مسلم ابن عبد القادر. (1974). *أنيس الغريب و المسافر*. (رابح بونار، المترجمون) الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.
21. Arnaud, L. (1861). .histoire de l ouali sidi ahmed et- tedjani. *Revue africaine, vol 05*, pp. 468-480.
22. ben choaib, A. a. (1907). les marabouts guérisseurs. . *Revue africaine, vol 51*.

23. berbrugger, a. (1864). Ruines du marabout de sidi abd el-kader sou maliana. Revue africaine. *revue africaine, 08*, pp. 454-464.
24. BNF GALLICA .(2010) .*Bibliothèque nationale de France* من ،2022 ,11 25 تاريخ الاسترداد . https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/cb328562033/date
25. bodin, m. (1925). notes et question sue sidi Ahmed-ben-yousef. vol 66.année. *Revue africaine, vol 66*.
26. delpech, A. (1884). résumé du bostane. *Revue africaine, vol 28*.
27. Delpech, A. (1883). résumé du bostane. .vol 27. année 1883. *Revue africaine* .
28. Delpech, A. (1874). résumé historique sur le soulèvement des derkaoua de la province d'Oran. *Revue africaine, vol 51*.
29. DON JOSEPH ARAMBURU .(1978) .*Oran et l'oust algérien au 18 siècle.*ALGER: bibliothéque nastionale.
30. Esterhazy, w. (1840). *domination turque dans l'ancienne régence d'Alger* . paris: . Libraire de Charles Gosselin.
31. l cauvet .(19223) .les marabouts petits monuments funéraires et votifs du nord de la l'Afrique . *Revue africaine ، volume 64*.521-448 .
32. SHAW, T. (1830). *Voyage dans la régenced'Alger ou description géographiC, physique,philologique,etc, de cet etat*. PARIS: CHEZ MATLIN EDITEUR.